رسالة الشعر والشعراء

لمّا طاف « غاغارين » حول الأرض وانحدر من الأفق الأعلى إلى الأفق الأدنى ، وملأت أنباؤه أرجاء العالم ، وشغلت رحلته عقول البشر كثرت في بعض المجالس والأحاديث هذه السؤالات : ما هي قيمة الشعر إلى جنب قيمة العلم ، ماذا يستطيع الشعراء أن يعملوا إلى جنب ما يعمله العلماء من أعمال تفوق كلّ تصوّر !

لا شكّ في أنّ الانسان يصيبه لأول وهلةٍ ما يشبه الذهول بعد سؤالات من هذا الشكل حتى يكاد يفقد كلّ ايمان بالشعر وكلّ ثقةٍ بالشعراء ، الاّ أنّ هذا الذهول لا يلبث أن يذهب أثره بعد قليل من صحو العقل واستفاقة الذهن ، لا يلبث الرجل بعد سؤالات من هذا النوع أن يرجع الى تمييزه فيعرف للشعر قيمته دون أن ينكر ما للعلم من قيمة .

من أقوال « بستور » : « في كلّ واحدٍ منّا رجلان ، الرجل العالم الذي طرح ناحيةً ما ورثه من الأفكار ولجأ إلى العيان والتجربة والتفكير حتى يرتفع إلى معرفة الطبيعة ، والرجل الحسّاس ، رجل التقليد ، رجل الايمان والشك رجل العاطفة ، الرجل الذي يبكي مَن فقده من ولده وهو لا يستطيع ، ويا للأسف ، أن يقيم البرهان على انّه سيراهم مرّة ثانية ، ولكنه يعتقد هذه الرؤية أو يأملها ، الرجل الذي لا يريد أن يموت كما تموت الجرثومة » .

هذان عالمان مختلفان ، ويا بؤس للذي يريد منهما أن يعتدي على الآخر » .

إذا جاز لنا أن نتصرّف في عبارة « بستور » قلنا إن العالم لا يستغني عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذين الرجلين : رجل العقل ، وهو العالم ، ورجل العاطفة ، وهو الشاعر ، فالعالم يدأب بياض الصبح وسواد الليل في الاهتداء إلى الحقيقة المجهولة ، والشاعر ينظر إلى ما يحيط بالبشر من عالم ملآن من الشدائد فيخفف من شدائدهم ، ويحوّل جهنمهم إلى جنّات عدن .

لا ريب في أن البشرية لا تستغني عن العلماء الذين نقدّسهم تقديساً لا غاية بعده ؛ إنّ لهم أهدافاً سامية يسعون إليها ، فهم يخلصون المحبّة لعلمهم ، فيعملون في مخابرهم ؛ وقد تسوء صحّتهم من عملهم ، ومع ذلك إن عقولهم لا تنفكّ تمتدّ إلى المعجزات ؛ إنهم يبحثون عمّا يضيء أذهان البشر وعما يشفي آلام الناس دون الالتفات إلى الآلام التي تأكل أجسامهم ببطء ، فكم من عالم قضى في سبيل بحثه وتنقيبه ، إما بسبب اشعاعات تُعمي ، وإما بسبب جراثيم تقتل ، وإما بأسباب ثانية تتصل بالكشف عن أسرار الطبيعة ، وإذا كانت صناعتهم قاسية في حين ، وقتّالة في حين آخر ، فإنها على كل حال صناعة جذّابة .

فاذا كنا نحني الرؤوس إجلالاً للعلماء الذين يخدِمون البشر بعقولهم الراجحة أفما ينبغي لنا أن نملأ القلوب من محبة الشعراء الذين يزينون الحياة الدنيا بخيالاتهم اللطيفة ؟

إنا نعتقد أن الناس يحتاجون إلى العواطف احتياج الأجسام إلى الحرارة ؛ فالرجل الذي لا تغمر العواطف قلبه ولا تدفئه حرارتها يعيش عيشة يزدحم عليها الحزن والكآبة ، فهو عاجز عن أن يقوم بأيّ عمل عظيم أو بأيّ عمل صالح ، فمن الواجب علينا أن نحتفظ بهذه النار المتأجّجة ، نار العواطف ، وأن نتعهدها فانها محور حياتنا الأدبية ؛ وكل الأدب على ما نظن قائم على تصوير قلب الرجل أي على دراسة عواطفه وأهوائه ، وعلى ما تفضي إليه هذه الدراسة من العواقب ؛ ونعتقد أن الشعراء أقدر الناس على مثل هذه الدراسة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ماذا فعل « شكسبير » في شعره ؟ إنه اجتاز في رأي « مُورُوا » أزمة تقرب بعض الشيء من أزمتنا ، فصرخ صرخاتٍ فيها الغضب والاشمئزاز ، وهي أرعب صرخات نجدها في تاريخ الأدب ، فلا يستطيع أحد ن يعرف مظاهر الحياة ومظاهر الأهواء على نحو ما عرفها « شكسبير » ، لأنه عاش وأحسّ بالألم ؛ لقد ذاق أمرّ العذاب والألم ، ثمّ نجا من عذابه وألمه في آخر حياته بعزلته في الأرياف ، بين الحقول والطيور والفلاّحين ، حيث وجد وحدة الحياة السعيدة بين ضهراني أهله ، وهنا جاءته الرؤيا الإلهية ، فكانت هذه الرؤيا حلاًّ لكل مشكلاته ، ولم يك حلاًّ مجرّداً ، ولم يك فلسفةً ذات شكل معيَّن ، ولكنه كان رؤيا ، لأن الشعر وحده هو الذي يحلّ مشكلات العقل .

لا ندري كيف تكون الحياة لولا الشعر ، أفلا تملأ الكآبة حينئذٍ كلّ جانب من جوانبها ، إذا جُرّدت الحياة من سلطان الشعر ؟ أفلا يتعطل جزء كبير من نفوسنا ؟ أفلا تنام ملكة الحسّ في أعماق قلب قاسٍ ، مقفرٍ ؟ أفلا تحرم نفوسنا نصيبها من لذّة الألوان والأصوات ؟ فلو لم يكشف لنا الشاعر عما يستر الطبيعة من مختلف الحجب لما نعمتْ أعيننا بصور هذه الطبيعة ولما أخذت آذاننا حظّها من ألحانها وأصواتها .

لا ندري كيف تكون لغتنا وأفكارنا لو لم يزيّن الشعراء هذه اللغة وهذه الأفكار بسحر صورهم وفتنة خيالاتهم . إن لغة العاطفة لا تبتلّ الاّ بأنفاسهم ، ولا تندّى الاّ بابتساماتهم ، فنحن لا نحبّ الاّ ازدحمتْ على هواطفنا ألحان الشعراء وتصاويرهم ، فقدّست هذه العواطف وعظّمتها ؛ فلو كانت الحياة متوقفةً على العقل وحده في هذا العالم ، ولو كانت الحياة مجرّدة من العواطف ولغتها لانتهت آجالها من زمنٍ بعيد ؛ فالشعراء على نحو ما قال « اناتول فرنس » هم الذين يلقون الضياء في الوقت الذي يلقون فيه الكلام على أفراحنا المبهمة وعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آلامنا الغامضة ؛ فهم الذين يقولون لنا ما نشعر به شعوراً ملتبساً ؛ إنهم أصوات نفوسنا ، بهم ندرك الإدراك كله مسرّاتنا ومضاجرنا .

لا ندري كيف نشعر بمحاسن الطبيعة لو لم يحملنا الشعراء على إدراك هذه المحاسن ؟ بعد ثلاثة أيام سيتولى في مهرجان الشعر فريق من الاساتذة الكلام على البحتري ، ما أعظم الفرق بين نظرة العالم إلى الطبيعة ونظرة الشاعر إليها ، يجلس عالم من علماء النبات نفسه على دراسة نوع من هذا النبات ، فيبحث عن غذائه وتنفسه ونموّه وما شابه ذلك بحثاً علمياً مجرّداً من الصور والألوان والألحان ، أما الشاعر فانه يرى في النبات ما لا يراه العالم . لقد نظر رجل العلم إلى كل ما نظر إليه البحتري أو غيره من الشعراء ، الاّ أنّ العالم لم يهتمّ في الطبيعة في مجامع مظاهرها الاّ بالقوانين التي يهتدي بها إلى معرفة خصائصها وأسرارها ، أما الشاعر فانه يرى من وراء هذه المعرفة علماً ملآن من الجمال ؛ يرى من ورائها ما يسرّ به حسّه وذوقه وشعوره . فالبحتري نظر إلى الأقحوان كما نظر إليه عالم النبات ، ولكنه لا يرى ضحك الأقاحي في الصباح الاّ رأى وراء هذا الضحك رضاباً برود ، والبحتري نظر إلى الشمس كما نظر إليها عالم الفلك ، ولكنه لا يرى جنوح الشمس للأصيل الا رأى في أضعافه جنوح حبيبته لو شك بعدٍ أو فراق ، وهكذا إن الشاعر ينظر إلى الطبيعة من زاويةٍ تختلف عن زاوية العالم ، فالطبيعة تشتمل في نظر العالم على صورٍ ترضي عقله ، اما الشاعر فان الطبيعة تشتمل في نظره على صورٍ ترضي حسّه وشعوره ، فلا يجد معنىً لتنفّس الروض في جنح باردٍ من الليل الا اذا ذكّره هذا التنفس أنفاس أحبّته ، ولا يجد معنى لترقرق الندى فوق الشقائق الا اذا ذكّره هـذا الندى دموع التصابي في خدود الأحباب ، ولا يجد معنىً للمعان البرق الا اذا ذكّره هذا اللمعان ابتسامةً من الابتسامات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العالم يبحث في الطبيعة عن الحقيقة والشاعر يبحث فيها عن الجمال ؛ والبشرية محتاجة في حياتها إلى هذين النوعين من البحث ، فإنها لا غنى لها عن الحقيقة كما لا غنى لها عن الجمال .

على أنّ العالم الذي ينقب عن الحقيقة لا مندوحة له في تنقيبه عن بعض ما يحتاج اليه الشاعر ، لقد قال أحد الكتّاب في « بستور » إنه رُزق من صفة المبتدع النصيب الأوفى وهو الخيال ، فلم يقف به هذا الخيال عند منتهى استقصائه واستقرائه ، ولكنه رمى به إلى أبعد من ذلك ، حتى كشف آفاقاً جديدة ، وتنبأ بالمستقبل ، وشعر بحقائق هذا المستقبل قبل غيره ، فكان فكره شبه شعاع المنارة الذي يضيء الطريق لمن يجيء بعده .

هذا الرجل ، رجل المخابر ، رجل التجارب إنه متنبيء ، انه شاعر !

ولسنا نعتقد أن الذين انصرفوا إلى البحث عن غوامض الفضاء في الشهور الأخيرة يقنعون بما ظفروا به من المعرفة ؛ إن خيالهم المبتدع يشبه خيال الشعراء ، فهو سيدفعهم بعد اليوم إلى هذا السؤال : ماذا بعد هذا الفضاء ! واذا بلغوا القمر في زمنٍ قريب أو بعيد فانهم سيقولون : ماذا بعد القمر ؟ ماذا بعد النجوم كلها ؟ فإن عقل البشر الذي يخضع لقوة لا سبيل إلى التغلب عليها لا ينفكّ يسأل هذا السؤال : ماذا وراء هذا كله ؟ فالخيال يدفعه إلى الكشف والابتداع ؛ إن العقل لا يريد أن يقف عند حدٍ من حدود الفضاء والزمن ، لأن هذا الوقوف لا يشفي غليل العالم ، فلا شيء يستطيع أن يخنق صوت تطلع العلماء !

نظن بعد هذا كله أن الشعر لا يحتاج إلى اقامة الدليل على قيمته في الحياة . ومهما نقل في الشعر فلا نستطيع أن نوفيه حقه أكثر مما وفاه بعض أدباء الإنكليز في قوله : « حقاً ان الشعر إنما هو شيء إلهي ! إنه في وقت واحدٍ دائرة معارفنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومركزها ، إنه الشيء الذي يشمل العلوم كلها والذي ينبغي لكل علم أن يرجع اليه ، إنه في وقت واحد ينبوع كل مقاييس الفكر. وزهرة هذه المقاييس كلها ، إنه مصدر كل شيء ، وزينة كل شيء .

كيف تكون الفضيلة والحب والوطنية والصداقة ، كيف تكون زينة هذا العالم الجميل الذي نسكنه ، كيف يكون عزاؤنا على جوانب القبور ، كيف تكون آمالنا وراء هذه القبور ، كيف يكون هذا كله لو لم يأت الشعر فيجلب لنا الضياء واللهيب من تلك العوالم الخالدة التي لا تجرؤ قوانا على أن تطير إلى آفاقها بأجنحتها ! »

من أقوال أحد الشعراء الفرنسيين : الناس يفتقرون إلى الشعر افتقارهم إلى الخبز !

فاذا كان الشعر لا يحتاج بعد هذا النمط من القول إلى إقامة البرهان على منزلته في الحياة ، فان الشعراء لا يفتقرون بعد القول الآتي الى اقامة الحجة على منزلتهم في البشر . يقول « اناتول فرنس » في هذا المعنى :

« الشاعر ملاك ! الشاعر أكثر من ذلك ! انه فوق أفق البشر ، ينزل عليه إلهام الشعر هدوء الفكر ومسرات العقل ، انه يكشف عوالم حديثه على نحو « كولمبس » دون أن يزايل مركزه ، ويفتتح البلاد على نحو « شرلمان » من غير أن يتحرك من مكانه .

انه يجمع هوائج النفوس ، فيبعث حياة كل واحد من البشر ، يشعر بفرح من يفرح ويحس بألم من تألم في هذا العالم .

أي سلطان في يديه ! انه يجمع الألفاظ ، تلك الألفاظ الباطلة التي تقلب وجه العالم ، الشاعر يحكم على الأحياء وعلى الأموات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انظروا الى الملك « مكبث » ؛ دلّ استقصاء المؤرخين على انه لم يقتل أحداً وعلى أن زوجته كانت امرأة صالحة ، فلم يكن على يدي « مكبث » لطخة دم ، ولكن من الذي يؤمن بعد اليوم بصلاح الزوجين الفاجعين ! أراد « شكسبير » ان يصوّر الملك « مكبث » في صورة مجرم فظيع لطخ يد زوجته لطخة حمراء ، فنظر الناس بعد تصوير « شكسبير » الى الملك « مكبث » والى زوجته ، فلم يروا في « مكبث » الاّ رجلاً قاتلاً ، غاصباً ، ولم يروا في زوجته الا أنامل مغموسةً في النجيع ، فلا يستطيع أحد ان ينصفهما بعد كلام « شكسبير » وان ينظر في مظلمتهما مرّة ثانية ، فقد نطق الشاعر ، واذا الشاعر نطق فلا تسمع العصور غير صوته ! »

ولكن ما هو الصوت الذي تسمعه العصور ، هل هو صوت الشاعر الذي يفصح عن أغراض المجتمع ، أم هو صوت الشاعر الذي يفصح عن أغراضه ، هل من واجب الشاعر أن يكون صدى المجتمع أم من واجبه أن يكون صدى نفسه ، أن يحتفظ بشخصيته قبل كل شيء ؟

لقد حدّد أحد رجال المجمع الفرنسي في باريز مهمة الكاتب في المجتمع ؛ وما عليّ أن أستعير بعض أقواله في الكاتب فأقولها في الشاعر ، على تباين الصناعتين ؛ اذا لم يكن الشاعر الا صدى المجتمع كان مصوراً أميناً أو مؤرخاً صادقاً ؛ ولا ريب في أن هذه المنزلة انما هي منزلة رفيعة ؛ الا أن الشاعر بعمله هذا لا يخرج عن إرادة المجتمع ؛ وقد تكون هذه الإرادة فوق إرادته ؛ انه ينقل صورة المجتمع كما هي ، فلا يساوي شعره الا ما تساويه هذه الصورة ، ولا بدّ له حينئذٍ من أن يفقد شخصيته ، فلا يضيف الى شعور المجتمع شيئاً .

قد يكون هذا الشاعر من الطراز الأول ، ولكن فوق هذا الطراز الشاعر الذي رُزق شخصية كبيرة يستطيع بفضلها أن يملي على المجتمع عواطفه وشعوره ؛

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهو يحمل هذا المجتمع على أن يرى الأشياء كما يراها هو نفسه ، لا شك في أنه قد يصادف في هذه السبيل بعض المعارضة لأن طبيعة البشر تقاوم كل تجديد أو تبديل ، ولكن عناد الشاعر سيحمل المجتمع في خاتمة الأمر على أن يعبد ما يعبده ؛ إن الشخصيات في العالم قليلة جداً ، فالعالم لا آراء له ، وإنما ينقاد إلى آراء من يقوده ، فالشاعر يلزمه قبل كل شيء أن يحترم شخصيته ، فهو ليس برجل كالرجال وهو ليس في مستوى كل الناس ، انه فوق البشر ، فلا يجوز له أن ينتظر أمر الناس ، وإنما عليه أن يأمر !

لولا أوامر « هوميروس » في القديم لما استطاع اليونانيون من بعده أن يغلبوا الفرس .

ولولا أوامر « غوتي » لما نهضت ألمانية ؛ لقد كان « غوتي » بنفسه وحدها نهضة لم تعرفها بلاده لا في القرن السادس عشر ولا في القرن السابع عشر !

اما نحن ، معاشر العرب ، فان شعراءنا الذين لم ينتظروا أوامر المجتمع وانما انتظر المجتمع أوامرهم كثير عددهم ، واذا تخطينا شيخهم أبا العلاء المعري ورجعنا الى سلفه أبي الطيب المتنبي وختمنا هذه الكلمة الوجيزة ببعض شعره فاننا نجده في هذا الشعر يملي على المجتمع ارادته وشعوره . لقد وقع في ذلك المجتمع ما يشوّه عزّة العرب فانفردت طائفة من عبيد الخلفاء بأمور الملك وغلبوا أولئك الخلفاء على ملكهم ، وشاركوهم في سلطانهم ، فصوّر المتنبي هذه الحالة الأليمة في بيتين من الشعر فقال :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخزّ حين يلمسه وكان يُبري بظفره القلم

ولم يكتف بتدوين ما وقعت عليه عينه في ذلك المجتمع من ضروب الظلم والاستبداد وانما أنّب الناس على خنوعهم وذلهم فهدر هدرات لا تزال تدوّي في سمع التاريخ :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام
ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ ايلام !

وأتبع دويّ صوته بالحضّ على التخلص من الظلم والاستبداد فقال :

غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تكون جبانا

فاذا كان هذا الشعر يحملنا من جهةٍ على التأفف من بعض عصورٍ في تاريخنا غلب فيها الأذى واشتد الهوان فانه من جهة ثانيةٍ يكفكف دموعنا ويبرّد جراحنا لأن أدبنا لم يخل من شعراء ثاروا على مجتمعهم فأملوا على هذا المجتمع شعورهم وارادتهم .

هذا هو سلطان الشعر !

هذه هي مهمّة الشعراء !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net